التأثيرات الفنية الأندلسية على المباني الدينية في تلمسان

أ.د.مبارك بوطارن
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

تمهـيد:

لقد كان لانقسام المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إلى شطرين: شرقي يحكمه الزيريون والحماديون ، وغربي ويحكمه المرابطون الأثر البالغ في اختلاف أساليب عمارته التي نشاهدها اليوم ماثلة في ما تبقى من مبانيه ، فبعد أن كان في العصور الإسلامية المبكرة يخضع في عمارته وفنونه إلى الأساليب الفنية الآتية من الشرق الإسلامي، أصبح القسم الغربي منه منذ قيام دولة المرابطين يخضع إلى التأثيرات الفنية الأندلسية .

ولقد كان لظروف نشأة هذه الدولة ولطبيعة البلاد التي قامت بها وكذا للتعصب الديني أثر عظيم انطبع على عمارتها الأولى ، حيث تميزت بالخشونة في تنفيذ الكتل البنائية والابتعاد عن كل مظاهر الزخرفة التي كان يرى فيها المرابطون أنها تتنافى ومبادئ الدين الإسلامي .

ولكن سرعان ما بدأت مظاهر الخشونة التي ميزت المباني الأولى تزول تدريجيا بعد احتكاك المغاربة بإخوانهم الأندلسيين عقب اتحاد المغرب والأندلس في وحدة سياسية تخضع لحكم الأمراء المرابطين ،مباشرة بعد أن وصلت إشارات الاستغاثة إلى هؤلاء من الأمراء المسلمين في الأندلس لدرء خطر الاسترداد المسيحي الذي يتهدد هذه البلاد الإسلامية .

وقد كان لمظاهر الحضارة والترف التي سادت الأندلس في تلك الفترة أعظم الأثر في نفوس الأمراء المرابطين، فأدت معاشرتهم للمجتمع الأندلسي إلى تغيير نظرتهم تجاه تلك المظاهر الفنية التي كانوا ينبذونها أول الأمر مما فتح المجال أمام الفنان المغربي لينهل منها فراح يأخذ منها شيئا فشيئا ويوظفها في المباني المغربية ، وذلك إما عن طريق استقدام العمال المهرة من الأندلس إلى المغرب أو عن طريق المحاكاة.

وتعتبر فترة حكم الأمير " **علي بن يوسف بن تاشفين** " (**500 ـ 537 هـ/ 1106 ـ 1143م**) أزهى فترة عاشها المغرب من ازدهار معماري وفني خلال حكم دولة المرابطين وقد تميزت هذه الفترة بسيادة الطوابع الفنية الأندلسية على العمارة المغربية ، وذلك لعدة اعتبارات نوجزها فيما يلي :

إن هذه الفترة شهدت عبور جيوش المرابطين إلى الأندلس بغرض الدفاع عن أراضيها الإسلامية ، فاستهوتهم حياة الترف التي كانت تسود الأندلس[1]، فأخذ المرابطون ينغمسون في حياة الترف والبذخ على مرور الزمن وقاموا بنقل مظاهرها إلى المجتمع المغربي وشجعوا انتشارها[2] بل أن الأمير علي بن يوسف ـ والذي قضى في الأندلس فترات طويلة ـ كان يستقدم إلى المغرب رجال العلم والأدب والفن[3]، وقد نتج عن احتكاك المغرب بالحياة الأندلسية تحول المرابطين من أقوام جفاة ذوي خشونة ومتعصبين للإسلام إلى أقوام متذوقين لما شاهدوه أمامهم من الفنون المختلفة الطبوع ويحسونها ، بل وأصبحوا يعملون من أجلها ، وسرعان ما استهوتهم حياة الترف هذه فانغمسوا فيها ودبت الغفلة في نفوسهم فنسوا المبادئ التي قامت عليها دولتهم مما أحدث تحولا كبيرا في حياتهم أعقبه انفتاح على الحضارات الاخرى فراحوا يستلهمون من بعض مظاهرها ما يرونه مناسبا لهم ويخدم دولتهم ولا يتنافى مع تعاليم دينهم.

وقد ساهمت هذه العوامل في إكساب أجزاء من بلاد المغرب عموما مسحة فنية أندلسية، تجلت في الطابع العام للمباني التي أنشئت في هذه البلاد ، وفي بعض العناصر المعمارية والزخرفية التي كانت تزين بها ، مازالت مدينة تلمسان تحتفظ ببعض معالمها المعمارية القائمة في مناطق مختلفة منها تشهد على هذه التأثيرات الوافدة إليها من بلاد الأندلس.

وإذا كان عصر المرابطين في المغرب قد شهد اقتباسا لبعض الفنون الزخرفية والعناصر المعمارية كما وجدت في بلاد الأندلس ، فإن بني مرين وبني زيان، ومن قبلهم الموحدين قد أخذوا من العناصر المعمارية والفنون الزخرفية الأندلسية وطوروها إلى درجة يصعب فيها معرفة التأثيرات الأندلسية عليها ، بينما يوحي الطابع العام لهذه الزخارف بأنها أندلسية الأصل ، وسنحاول من خلال هذه الدراسة التي خصصناها للمباني الدينية في مدينة تلمسان أن نركز على بعض العناصر المعمارية والزخرفية المستخدمة في هذه المباني ـ والتي نرى أن فكرتها مستوحاة من بعض مباني بلاد الاندلس ـ محاولين معرفة كيفية انتقال هذه التأثيرات إليها ، و محددين لهذه

التأثيرات التي تلقتها عن العمائر الأندلسية فيما تكمن، سواء تعلق الأمر بالمباني المرابطية أم تلك التي ترجع إلى فترات لاحقة كالعمائر الموحدية .

هذا وقد بلغ الأمر بأحد المشتغلين بالآثار الإسلامية في المغرب والأندلس إلى القول - في معرض حديثه عنها - أن الفن في هاتين الفترتين إنما نطلق عليه تسمية الفن المرابطي، والفن الموحدي مجازا ، بينما هما في الحقيقة فنان أندلسيان نقلا إلى المغرب[4] .

إن دراسة التأثيرات الأندلسية على عمائر مدينة تلمسان يمكن تقسيمها من حيث كيفية الانتقال وطريقة الاقتباس إلى قسمين :

يمثل الأول التأثيرات المباشرة التي تلقتها مدينة تلمسان وهي تحت حكم المرابطين لها، أما القسم الثاني فيمثل تلك التأثيرات التي انتقلت إليها عن طريق المباني الموحدية التي شيدوها في المغرب الأقصى ، ويمثل هذه الفترة منشآت بني عبد الواد وبني مرين . وسنتناول فيما يلي بالدراسة كل فترة على حدة :

التأثيرات الأندلسية على تلمسان في عهد المرابطين :

لقد كان الفن المعماري في مباني المرابطين الأولى ، وفي عهد الأمير **يوسف بن تاشفين** بالذات خشنا عاطلا من الزخرفة ، انعكست عليه الروح الاجتماعية والدينية التي صاحبت قيام هذه الدولة ، وباتحاد المغرب والأندلس فيما بعد، الأمر الذي سمح باحتكاك المجتمع المرابطي بالمجتمع الأندلسي تأثر المغرب بمظاهر الحياة الاجتماعية الأندلسية وانعكست هذه المظاهر بصفة مباشرة على مباني عصر المرابطين سواء تلك التي كانت مبنية في فترة سابقة ، أم تلك التي بنيت في فترات لاحقة .

وأول مباني مدينة تلمسان التي تجلت فيها التأثيرات الأندلسية هو مسجد الجامع بتلمسان ، ويدل على ذلك روح الأسلوب البيزنطي التي لا تشبه الأسلوب البربري المبكر - الذي نجد في مدينة "**سدراته** " أمثلة عنه - من جهة ، ومن جهة ثانية فهو أيضا بعيد كل البعد عن سمات الأسلوب الزخرفي العراقي ، الذي يظهر جليا في مباني إفريقية ، وعلى وجه التحديد في جامع القيروان (**50 هـ/ 670م**) وبعض العناصر المعمارية في قلعة بني حماد[5]، على أن هذا الأسلوب الذي نجده منفذا في المسجد الجامع بتلمسان قريب الشبه بطراز العصر الأموي بالأندلس ، حيث يمثل جامع قرطبة أنموذجا حيا عنه ، وقد شملت هذه التأثيرات العناصر المعمارية والزخرفية في آن واحد.

لقد تعرض هذا الجامع في عهد " **علي بن يوسف بن تاشفين** " لتجديد مس واجهة المحراب والقبة التي تتقدمه ، حيث أقيمت هذه القبة على ضلوع متقاطعة تنطلق من

قاعدة القبة وتتقاطع في نهاية القبة مكونة بينها فضاء صغيرا تغطيه قبة صغيرة مقرنصة[6]. وقد فرغ من بناء هذه القبة سنة 530 هـ/ 1136م ، كما يبينه شريط الكتابة التأسيسية التي تحيط برقبتها ، وبطبيعة الحال فإن هذا الأسلوب البنائي المتبع في هذه القبة إذا ما بحثنا عن نماذج سابقة له في بلاد المغرب لا نجد لها أثرا إلا في بعض مباني الأندلس مما يدفعنا إلى القول بأن فكرة بناء هذه القبة بالأسلوب الفني التي هي عليه ربما مأخوذة عن القباب المضلعة التي ظهرت في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي في جامع قرطبة ، ومسجد باب المردوم بطليطلة ، ثم انتشرت بعد ذلك في المباني الأندلسية[7] ، وإذا كان من المسلم به أن فكرة هذه القبة مقتبسة من قباب جامع قرطبة ، فإن البناء في عهد المرابطين لم يبق على فكرتها المعمارية البحتة المتمثلة في العقود الحجرية المتينة والضخمة التي كان الغرض منها حمل الكتلة البنائية التي تتكون منها القبة، بل لقد استطاع أن يطورها لتؤدي الغرضين المعماري والفني في الوقت نفسه ، إذ استعمل المهندس المقرنصات في تحويل المربع إلى المثمن وهو الشيء الذي تفتقده القباب المضلعة في جامع قرطبة ، كما أن طراز الضلوع الرفيعة التي تقوم عليها القبة والتي تحوي بينها مساحات زخرفية مخرمة جعلت منها لوحة فنية لا نظير لها في بلاد المغرب وربما حتى بلاد الأندلس، وإن دلت على شيء فإنما تدل على مدى النضج الفني الذي بلغه الفنانون المرابطون، ومدى درجة التحول الحضاري الذي عرفوه في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إن كان هذا الإنجاز فعلا من عملهم ذلك أننا نرجح أن يكون بناء هذه القبة قد تم على يد بعض الفنانين الذين استقدمهم علي بن يوسف من الأندلس لأن الأسلوب الفني المتبع في بناء هذا العنصر المعماري ينم على يد عاملة ماهرة.

وإذا انتقلنا بالحديث إلى محراب الجامع ، فإننا نجد أن الأسلوب المتبع فيه يغلب عليه الطابع الأندلسي سواء كان ذلك في زخارف واجهته أم في شكل تجويفته الداخلية ، إذ يعتبر هذا المحراب أول مثال للمحاريب المضلعة في المغرب الأوسط ، ذلك أن شكل المحاريب السابقة - بما في ذلك محراب المسجد الجامع بمدينة الجزائر - اسطواني[8] ، فلا يستبعد أن يكون هذا الشكل الجديد من المحاريب قد نقل إلى بلاد المغرب الأوسط من الأندلس مع جملة التأثيرات التي تلقتها هذه المنطقة من بلاد الإسلام في ظل حكم دولة المرابطين لها.

يستمد محراب جامع تلمسان تخطيطه العام من باب **سان استيبان (باب الوزراء)** ويكمن وجه الاختلاف بين هذين العنصرين المعماريين في مادة البناء فقط ، ذلك أن

الأسلوب المتبع في باب سان استبان معماري بحت استعملت فيه الحجارة على نحو الأسلوب المعروف بالأبلق، والذي تعطينا عقود البوائك في بيت الصلاة صورة واضحة عنه ، وقد جاء هذا الأسلوب المتبع في تنفيذ هذا الباب ربما تماشيا مع وظيفته. ولما كان غرض الفنان المرابطي في تلمسان زخرفيا بحتا خلاف باب سان استيبان، فقد استعمل الجص في تزيين واجهة المحراب حيث استعان في تنفيذ زخارفه بتخطيط واجهة باب سان استيبان بجامع قرطبة وزخارف محرابه ووظفها في محراب جامع تلمسان، مكونا منه وحدة فنية متكاملة جمع فيها بين الفن والعمارة ، فأكسبه مسحة فنية غلب عليها الطابع الفني الأندلسي .

وقد كان لتنقل الفنانين الأندلسيين إلى المغرب في ظل الحركة الثقافية النشطة التي شهدها المغرب منذ اتحاده بالأندلس أثره على الجانب الفني في المباني المرابطية ، ذلك أن الزخارف النباتية المنقوشة على الألواح الخشبية التي تشكل سقف جامع تلمسان ، والتي نراها اليوم منفذة على الجص في واجهة المحراب وفي القبة المضلعة قريبة الشبه بزخارف جامع قرطبة ، حيث مازالت تسيطر عليها المسحة البيزنطية التي تميز زخارف العصر الأموي بالأندلس ، فقد رسم الفنان مروحة النخيل المسننة الطويلة والقصيرة على النحو السائد في جامع قرطبة وقصر الجعفرية بسرقسطة[9] ، كما انتقل تأثير فن قصر الجعفرية أيضا إلى جامع الجزائر حيث تشكل حشوات المنبر الخشبي (490 هـ/ 1096م) لهذا الجامع طرازا فنيا يشبه الزخارف النباتية في قصر الجعفرية[10] .

وأما الزخارف التي تزين الأشكال الهندسية المثلثة الممتدة بين عروق القبة المضلعة بجامع تلمسان والتي تشغلها المراوح النخيلية ، فلا يوجد لها مثال آخر في المغرب الأوسط في حدود علمي ، كما يرى **توريس بالباس** أنها تشبه مجموعة من الزخارف النباتية التي نقشت على قطع من الجص عثر عليها في منية **المورور** بغرناطة وأخرى عثر عليها بين أطلال قصر الكاستييخو بمرسيه ولا تزال هذه القطع محفوظة إلى الآن في متاحف أسبانيا[11].

و أما بالنسبة لورقة الأكانتس التي وظفها أيضا فنان عصر المرابطين فقد قلد فيها زميله الفنان الأموي الأندلسي في رسمها، حيث تدل النماذج التي تزين واجهة محراب المسجد الجامع بتلمسان على تأثرها بأوراق الأكانتس بجامع قرطبة للتشابه الكبير بينهما. هذا ولم تتوقف التأثيرات الأندلسية عند هذا الحد بل امتدت لتمس الزخارف الخطية أيضا ، حيث تميزت النقوش الخطية الكوفية في جامع تلمسان وتلك التي

نقشت على بعض الألواح الخشبية التي كان يتكون منها منبر جامع ندرومة ، وعلى منبر جامع الجزائر بسيادة الطابع الأندلسي في الكتابة .

ويرى **توريس بلباس** أن زخارف الأخشاب المحفوظة حاليا بمتحف تلمسان ، والتي كانت فيما مضى تمثل سياج مقصورة الجامع ، قريبة الشبه بالزخارف الأندلسية بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث ينسبها إلى بلاد الأندلس[12] ، ويستنتج من ذلك أن التأثيرات الأندلسية على تلمسان خاصة وعلى المغرب الأوسط عامة أيام المرابطين لم تخص جانبا من العمارة أو الفن دون الآخر ، بل امتدت هذه التأثيرات لتمس جميع الجوانب الزخرفية والمعمارية في المباني الدينية التي ترجع إلى هذه الفترة ، وهذا يفسر أيضا ذوبان المغرب في الحضارة الأندلسية ، مما جعله يأخذ من شتى فنونها ، ومن مختلف مناطقها دون تخصيص ـ على الرغم من قصر عمر الدولة المرابطية ـ مما يبين مدى قابلية المجتمع المغربي في عهد المرابطين لتقبل مظاهر الحضارة الأندلسية في وقت وجيز.

التأثيرات الأندلسية على تلمسان في عهد الزيانيين والمرينيين :

إذا كان عهد الموحدين لم يخلف لنا من عمارته وفنونه شيئا يذكر بمدينة تلمسان نظرا لانشغالهم بحكم المغرب الأقصى والأندلس ، فإن بعض التأثيرات الأندلسية على المغرب الأوسط انتقلت مباشرة من الأندلس إلى مدينة تلمسان ـ كما هو الحال في عهد المرابطين بينما ساهم الموحدون بقسط كبير في ربط حلقة الاتصال بين الاندلس والمغرب لوصول هذه التأثيرات إلى مدينة تلمسان في عهدي بني زيان وبني مرين ، إذ يعتبر فن الموحدين بمثابة همزة وصل بين المغرب الأوسط والأندلس ، ذلك أن الموحدين أيضا تأثروا بفنون الأندلس فقلدوها ، كما أنهم أثروا بدورهم في الفنون المرينية والزيانية مما أدى إلى انتشار الأساليب الأندلسية في العمارة المرينية والزيانية بتلمسان.

وهكذا فقد حمل إلينا عهد الزيانيين و المرينيين عدة أساليب معمارية وفنية شاع استعمالها في بلاد الأندلس على عهد أمراء بني الأحمر[13] ،وأفضل العمائر التي تجسد لنا هذا التأثير مسجد سيدي أبي الحسن (696 هـ 1296م) حيث يمثل أجمل مثال في المغرب الأوسط للطراز الأندلسي المغربي في الفن والعمارة ، ذلك أن بعض عناصر عمارته قريبة الشبه في طرزها من مباني مدينتي غرناطة وإشبيلية ، حيث يدل محراب المسجد الجامع بتلمسان الذي ظهرت بوادر عمارته الأولى على أيدي فناني العهد الأموي بالأندلس في محراب جامع قرطبة وفي واجهة باب سان استيبان بالجامع نفسه على التأثير المباشر للفنون الأندلسية على المغرب ، ثم أن هذا التأثير لم يمتد بعد

المسجد الجامع بتلمسان إلى مسجد سيدي أبي الحسن فحسب ، بل تعداه إلى مسجد سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي وكلاهما من العهد المريني ، إذ أصبح الطابع العام المميز لمحراب جامع قرطبة هو المتبع في زخرفة محاريب مساجد مدينة تلمسان ، كما تدل القبيبة المقرنصة التي تغطي محراب مسجد سيدي أبي الحسن أيضا على سيادة الطابع الغرناطي والإشبيلي في المقرنصات ، ويتجلى أيضا تأثير طابع عمارة غرناطة على مسجد سيدي أبي الحسن في تيجان الأعمدة التي تشبه إلى درجة كبيرة في هيكلها العام تيجان أعمدة بهو السباع بقصر الحمراء.

وإذا كانت هذه الأخيرة تتميز بالرشاقة والاستطالة، فإن تيجان مسجد سيدي أبي الحسن تتميز بغلبة العرض على الطول ، وهي بذلك تشبه تيجان أعمدة ضريح سيدي أبي مدين.

وقد كان لمئذنة الخيرالدا بأشبيلية أثر كبير على المآذن المغربية بصفة عامة ومآذن مدينة تلمسان على وجه الخصوص ، ذلك أن أقدم النماذج لمآذنها رغم تباين فترات بناء مساجدها ترجع إلى العهد الزياني ، فالمآذن التي نراها اليوم قائمة في المساجد المرابطية في المغرب الأوسط ، هي من الأعمال التي ألحقها أمراء بني زيان بها ، فجاءت شبيهة بمئذنة جامع إشبيلية وإن كانت تأثيرات هذه المئذنة تبدو أكثر وضوحا في المآذن التي زود بها الموحدون أنفسهم المساجد التي شيدوها بالمغرب الأقصى مما يدعونا إلى الاعتقاد أن تأثيرات المآذن الاندلسية وصلت إلى المآذن الزيانية والمرينية في تلمسان عن طريق هذه المآذن الموحدية.

إن هذا التأثيرات سرعان ما انتقلت من المآذن السالفة الذكر إلى المآذن الزيانية والمرينية في مدينة تلمسان بعد سقوط دولة الموحدين وانقسام المغرب إلى ثلاث دويلات مرينية وزيانية وحفصية، حيث أصبحت مئذنة جامع الكتبية بمراكش مصدر إيحاء للبنائين الزيانيين والمرينيين ، وخير دليل على ذلك الطابع المعماري المميز للمئذنة نفسها الذي يتكون من برجين، برج سفلي كبير يعلوه جوسق صغير، حيث لا نجد أثرا للمئذنة المربعة التي تتكون من ثلاثة أبراج كمئذنة جامع القيروان ، مما يبين أن المباني الدينية بمدينة تلمسان على وجه الخصوص والمغرب الأوسط على وجه العموم كانت خاضعة في كثير من عمارتها إلى التأثيرات الآتية من الغرب لقرب هذا الجزء الغربي من المغرب الأوسط من المغرب الأقصى والأندلس ، والذي يحتضن جل المباني الدينية التي أنشئت في تلمسان التي تعد أهم مدنه في الفترة الممتدة من القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن الهجري.

كما تجدر الاشارة إلى أن تأثيرات مئذنة جامع الكتبية لم تقتصر على الجانب المعماري فحسب بل امتدت أيضا تأثيراتها لتشمل الجانب الزخرفي ذلك أن التشبيكات الزخرفية التي تزين الواجهات الأربع للمآذن الزيانية والمرينية [14]تشبه بدورها التشبيكات الزخرفية التي تزين واجهات مئذنة جامع الكتبية بمراكش .

خلاصة القول أن مآذن جامع أغادير ، والمسجد الجامع بتلمسان ، ومسجد سيدي أبي الحسن والجامع الكبير بمدينة الجزائر ـ وكلها تعود إلى العهد الزياني ـ ومئذنتي جامع سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي ـ وكلتاهما ترجعان إلى العهد المريني ـ تحمل جميعها الدليل الواضح على التأثيرات الأندلسية المختلفة التي تلقاها المغرب الأوسط.

وإذا ما انتقلنا بالحديث إلى الفنون الزخرفية ، فإننا سنجد أن مسجد سيدي أبي الحسن قد تلقى كماً لابأس به من التأثيرات الأندلسية ، ذلك أن الزخارف الكتابية به يغلب عليها الطابع السائد في زخارف قصر الحمراء بغرناطة وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وأن الخط الكوفي امتد تأثيره ليشمل بعض مباني المرينيين مثل مسجد سيدي أبي مدين .

كما أن الزخارف الخشبية التي استخدمت في تزيين مسجد سيدي أبي الحسن تبدي شبها كبيرا بالزخارف الأندلسية المعقدة والملتوية التي تمثل إطارا رسمت داخله أشكال دائرية رسمت بها أزهار صغيرة متعددة الأشكال وقد ظهر هذا الطراز من الأوراق في كنيسة **سانتا ماريا** لا بلانكا بطليطلة[15] .

وفي الختام نستخلص مما سبق أنه إذا كان اتحاد المغرب والأندلس أثناء عهد المرابطين والموحدين قد تميز من الجانب الفني والمعماري بانتقال التأثيرات الأندلسية إلى المغرب وانصهارها في العمارة المغربية ، فإن هذا لا يعني أنه لم يكن للمغرب ابتكارات حديثة ، أو أنه لم يتلق بعض التأثيرات الفنية من جهات أخرى ، بل بالعكس ، فإن التأثيرات المشرقية مازالت منتشرة في عمارة المغرب الأوسط، بالرغم من التحول الهائل للمغرب الأوسط تجاه الأندلس نتيجة الظروف التي أوجدها اتحاد المغرب والأندلس فقد ساهمت هذه الظروف الاجتماعية والسياسية في تخلي المغرب بصفة عامة، والمغرب الأوسط بصفة خاصة عن الطرز الفنية والمعمارية المشرقية ، واتجاهه نحو الأندلس نظرا للتقارب السياسي والاجتماعي الذي تم بينهما منذ قيام دولة المرابطين ، تاركا وراءه الأساليب الفنية والمعمارية المشرقية والتي كانت منتشرة في الجزء الشرقي من المغرب الأوسط .

وقد نتج عن هذا انطباع العناصر المعمارية ، والأساليب الفنية الأندلسية على المباني الدينية في المغرب الأوسط ، فقد كانت مباني المغرب الأوسط في الفترة الأولى من عهد المرابطين تمثل نقطة التقاء التأثيرات المشرقية والأندلسية ، كما يمكن اعتبارها في الوقت نفسه نقطة انتقال أو تحول من التأثيرات المشرقية إلى التأثيرات الأندلسية .

وإذا كانت التأثيرات الأندلسية على العمارة الدينية في المغرب الأوسط قد ظهرت عليها بوضوح ابتداء من فترة حكم **علي بن يوسف بن تاشفين** فهذا أيضا لا ينفي وجود بعض التأثيرات المشرقية على المغرب الأوسط ، مثل (نظام الأبواب البارزة - المقرنصات) ، إذ استمرت هذه التأثيرات متبادلة بين المغرب والمشرق الإسلاميين حتى عهد الزيانيين والمرينيين ، ويستنتج من ذلك أن الفنانين المغاربة قد ابقوا على الأساليب الفنية والمعمارية الأندلسية التي أعجبوا بها في الأندلس ، والتي وصلتهم بفضل احتكاك المجتمع المغربي بالمجتمع الأندلسي على مر الزمن ، حتى اكتسبت المباني الدينية في المغرب الأوسط الطابع العام للمباني الدينية الأندلسية ، خاصة في عهدي بني عبد الواد وبني مرين ، ومع أن بعض المباني أو عناصرها لا تشبه إطلاقا مثيلتها في العمائر الأندلسية ، فإن الشكل العام للمبنى يغلب عليه الطابع الأندلسي .

وإذا كان المغرب الأوسط قد تعرض لهذه التأثيرات الهائلة من الأندلس وبعض التأثيرات الأخرى من المشرق ، فهو أيضا قد أكسب بعض المباني المشرقية طابعا فنيا يقترب من طابع المغرب الأوسط، ومثال ذلك الكتابات التي تزين جامع الحاكم بأمر الله " **الملك بالله** " كتبت بخط كوفي يشبه كتابات مسجد سيدي أبي الحسن 696 هـ/ 1296م[16] ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الدرجة الرفيعة التي بلغها الفن المغربي في عهد الزيانيين ، هذا وأن الفن الإسلامي بالمغرب لا يختلف في طوره الحضاري عن اي فن يستا مبتدا بما سبقه من فنون ومعايشا لما حوله من حضارات ثم يخرج من مرحلة التأثر إلى مرحلة النضج والتطوير ثم الابتكار والإبداع ومن ثم الإشعاع والتأثير فيما حوله .

الهـوامش:

1. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة سباب الجامعة، الاسكندرية، (د. ت)، ص .653

[2] ـ عبد العزيز سالم: الفردوس المفقود ـ الفن الأندلسي، مجلة الدارة، العدد الرابع، 1983، ص 109.

[3] ـ ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم و د.محمد صلاح حلمي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1958، ص 46 ، 47.

[4] ـ ليوبولدو توريس بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة الدكتور سيد غازي ، دار المعارف ، مصر 1971 ، ص 13

5 ـ Marçais (G): Revue de L'art musulman en bèrbérie, extrait de la revue africaine, Alger, 1957, P: 416.

[6] - بنيت هذه القبة في نفس الموضع الذي أنشئت فيه القبة المخرمة الكبرى التي تسمى بقبة الضوء في جامع قرطبة. ويعتقد أنها أول قبة أقيمت في المغرب الأوسط على طراز قباب جامع قرطبة، تقوم هده القبة على إثنى عشر ضلعا رفيعا تنطلق من رقبة القبة وتنتهي بأعلى القبة وتتقاطع مع تعضها البعض في عذة نقاط مشكلة في وسطها مساحة على شكل مضلع إثنى عشريا تغطيه قبة صغيرة من المقرنصات يرجح أن تكون أقدم مثال للقباب المقرنصة في المغرب والأندلس. عبد العزيز سالم، روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر، مجلة المجلة، العدد 19، 1959، ص 31.

[7] - Lambert (E): Les voûtes nervées hispano Musulmanes du XI siècle et Leur Influences possible sur l'art Chrétien, In Hesperis, T VIII, 1928, P: 147.

[8] – Bourouiba (R): L'art religieux Musulman en Algérie, S.N.E.D, Alger, 1972, Fig 12.

[9] ـ شيده أبو جعفر المقتدر الذي حكم في الفترة ما بين (438 هـ ـ 474 هـ/ 1046 ـ 1081 م).

[10] - Marçais (G): L'Architecture Musulmane d'occident, Arts et métiers graphiques, Paris, 1954, P:175.

- Marçais (W et G) : Les Monuments Arabes de Tlemcen, Fontemoing, Paris, 1903 , P: 152

[11] ـ ليوبولدو توريس بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ص 46.

[12] ـ ليوبولدو توريس بلباس : المرجع السابق ، ص 56.

13. حكمت هذه الأسرة مدينة غرناطة ، وقد أسس هذه الدولة الأمير محمد بن الأحمر واستقر حكمه فيها إلى سنة 635 هـ/ 1238م .

14 - Golvin (L): La Mosquée ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane plus spécialement en Afrique du nord, Alger, 1960, P: 56.

15- MARÇAIS(W et G): Les Monuments Arabes , P: 15

16- MARÇAIS (G) :Les échanges artistiques entre L'Egypte et Les pays Musulmans occidentaux, In Hesperis, T XIX; 1934, P: 149.